مجلـة جامعـة تشرين للدراسـات والبحـوث العلمية
المجلـد ٥ ـ العـدد ٢ مـن ١١ إلـى ١٨

شعبان ١٤٠٢هـ
حزيران ١٩٨٢م

الماساة والمسرح

الدكتور
محمود الخير
كلية الآداب

«ليس شرطا ان يراق الدم ويحدث موت في الماساة . يكفي أن يكون الحدث عظيما ، ويكفي ان يكون أشخاص الحدث أبطالا يستثيرون العواطف ، وتكون النتيجة العامة حزنا هائلا يشكل متعة المآساة» .

راسين

«يبدو العظيم في الماساة اكثر عظمة منه في التاريخ اننا نراه فقط في الأزمات التي تكشف لنا حقيقة وجوده» .

نابوليون

«ان عصرنا بالضرورة عصر تراجيدي ولذلك فاننا نرفض ان نعتبره كذلك» .

د . هـ. لورانس

«يبرز الوضع الماساوي عندما لا تنتصر الفضيلة وحين يستمر الشعور ان الانسان أنبل من القوى التي دمرته» .

جورج اورويل

في إحدى مسرحيات (تنسي وليامز) الكاتب المسرحي الامريكي الشهير تواجهنا احدى الشخصيات الماساوية ، وهي شخصية كاتب لا يستطيع سداد دينه بسبب تراكم ايجار الغرفة الوحيدة التي يسكنها في منزل سيدة بورجوازية ثرية تعيش حياة الرفاهية بزيف أخلاقي لا حدود له . وعلى خشبة المسرح تصرخ شحصية الكاتب في وجه السيدة المتصابية :

«إنني أعيش عالمي الروائي المؤسف ما هو الرضى الذي
تصلين اليه حين تمزقين عالمي هذا الى قطع صغيرة وتدوسين
عليه وتدعينه أكذوبة ؟! أقول لك هذا . اسمعي ـ لا توجد
أكاذيب غير تلك الأكاذيب التي تحشوها في الفم يد الحاجة
القاسية ، قبضة الضرورة الفولاذية الباردة أيتها السيدة . .
وهكذا فانت تعتقدين انني كاذب ولكن عالمك كله مبني على كذبة
، ان عالم كله ليس غير كذبة جهنمية مصنعة . اكاذيب . . .
اكاذيب . . . . اكاذيب . .»

هذه الكلمات تعبر عن أصدق المشاعر وأرقها وأنبلها توصلها لنا شخصية مسرحية خلقها الكاتب المسرحي لتضع الاصبع مباشرة على الجرح المساوي في محيط البرجوازية الفاسد . ويواجه الكاتب الجمهوري في نهاية المسرحية في موقف مأساوي واضح قائلاً

«لست استدر شفقتكم لكنني أطلب منكم ان تفهمونني ،
ليس ذلك . لا . لا لكنني اريد ان تتعرفوا على ذاتكم
وتعرفوا عدونا المتأصّل في أعماقنا جميعا . . الزمن»

الماساة قضية حياة وموت هي حياة تتوالد في ظل شبح الموت . وموت يحدث في انتصار الحياة الماساة هي التناقض المستمر والتوتر الدائم اللذان منهما ينبع الجمال والنشوة الماساة هي انتصار الروح الانسانية التي تناضل ضد جميع انواع الشذوذ من أجل فكرة سامية تؤمن بها وتقضي في سبيل الدفاع عنها بجبين لا يزال عاليا وقبضة مرتفعة متوجهة الى الأعالي . المآساة تترفع عن الصغائر ، وعن التطلعات الدنيئة الماساة تتجلى بالاهتمام وبالحقيقة ذاتها ، مهما كانت الحقيقة ، الحقيقة التي تصير الانسان حرا وتجعل من موته

انجازا ، ونغما ختاميا رائعا . الموت هو المستقبل الذي ينتظر كل انسان ، وفي عمق أعماقه يعرف الانسان ذلك ، سواء اعترف به ام لم يعترف.والرغبة في الحياة حقيقة في أعماق الانسان وليس هناك من يرغب في ان تكون حياته صغيرة أو تافهة واذا وجد ذلك الانسان فهو خجل من رغبته تلك . الموت الحتمي الذي يقلق حياة كل انسان لا بد آت لكن المستقبل الكريم يتغلب على موت الانسان ويتجاوز موته الجسدي . ومن هنا فجذور المأساة موجودة في طبيعة الانسان.أما البنى السياسية والاقتصادية والخلقية فمعرضة للتطور والتغير . والتناقض الواقع بين الموت والحياة ، موجود في مختلف الأزمان والأماكن . والمسرح أكثر الفنون التصاقا بالحياة ومشابهة لها وأكثر مقدرة على أن يعكس صورها وأشكالها .

يتنوع أدب المأساة : فمن ولادة المأساة الى موتها ، ومن فكرة المأساة الى جوهرها ومن البطل الماساوي الى المواضيع الماساوية ، ومن نظرية الماساة الى الرؤ ية الحياتية في الماساة

الماساة موضوع دائم لا ينتهي ولا يستنفذه البحث مهما تنوع ومهما طال . ولا بد لنا من عرض أهم مقومات العمل الماساوي .

المواضيع الماساوية ، تأتي اولا . ينبغي ان تكون هذه المواضيع جادة متعلقة بالفترة الزمانية التي تكتب فيها الماساة . في اليونان القديمة اتجه الكتاب الى سيادة قانون الالهة الى النزاعات التي تعتمل في قلب الانسان بين ولائه للمدولة ، وبين تعلقه بالعائلة . في العهود الاليزابيثية برزت المشاعر الانسانية وخضعت لعملية دراسة عميقة.أصبح الطموح والغيرة والحب والكبرياء،كل هذه وكثير غيرها كانت من بين المواضيع التي يتناولها الكاتب المسرحي وفي فرنسا / راسين/ احتل النزاع بين الحب والواجب مكان الصدارة . اما في العصر الحديث فالانسان يواجه ذاته . ومع المحيط الذي يعيش وسطه ، والوراثة ، الانسان وفقدان الهوية - وفي كل ذلك رغم كثرته وتنوعه يسيطر الموضوع الرئيسي الصراع بين الموت والحياة .

وتأتي القصة أو الحكاية ، في المرتبة الثانية . ومهما تنوعت القصص في الماساة لا بد من حتمية الكارثة.ربما كانت القصة بسيطة وقد تكون معقدة . قد يكون الحدث مركزا في اتجاه واحد وربما امتد وتشعب.وفي كل هذه الأحوال ، لا يوجد مخرج ولا توجد بدائل (فأنتيجون) يجب أن تدفن اخاها . (وكريون) يجب أن يحمي القانون . (وفيدرا) يجب أن تستهلك برغبتها ذاتها . (وماكبث) حين يضع أول خطوة على طريق السلطة المطلقة لا يمكنه ان يتراجع . الاحتمالات في الماساة غير واردة ، والحدث المأساوي ضروري ، والنهاية حتمية .

كان أرسطو مصيبا حين قال أن البطل الماساوي انسان طيب ، وليس شرطا أن يكون

على درجة مطلقة من الخير والعدل . تحدث مآساته بسبب خطأ أو ضعف وليس نتيجة حرمان أو رزيلة الخطأ اتفق على تسميته بالخطأ التراجيدي . وقد انسجمت هذه التسمية مع الفلسفة المسيحية التي بحثت أصول خطيئة الكبرياء والكبرياء هي الميزة الرئيسية التي اتصف بها البطل التراجيدي قديما. والبطل التراجيدي لاحق بالعمل المآساوي ذاته . ولا يمكن فصله عنه هو شخصية مسرحية ، قناع المسرحية ذاتها من صنع الكاتب المسرحي والذي يتتبع الابطال التراجيدين في المسرح ، بدءا من (أوديب) مرورا (هملت) (وماكبث) (وفاوست) وصولا الى الشخصيات الرئيسية في القرنين الثامن والتاسع عشر بل حتى الى القرن العشرين في المسرح المعاصر يرى أن السمة الأساسية للبطل ، انما هي في الحقيقة الالتزام ، وليس الكبرياء . البطل التراجيدي ، يحترق بلهب الالتزام حتى الموت الفعلي أو الرمزي . ومن أجل هذا يدعى البطل التراجيدي بطلا . ومن أجل هذا لا نتردد في ابداء اعجابنا بشخصيته .

كثيرون منا يتصفون بالاعتدال ويشتهرون بالمقدرة على التأقلم والحلول الوسط مستندين على تعريف اكتشافات الذات بعملية تراكمية لفترة من الزمان ، تدعى : الحياة كلها ، الحياة كاملة . وهنا لا بد من القول أن البطل الماساوي مثله مثل الابله كلاهما ذو ذهنية واحدة ، لا يعيشان بوجهين ، وكلاهما ملتزم لذهنه والفرق الوحيد بينهما هو السبب الأساسي للالتزام ، فالبطل الماساوي ملتزم لقيم معينة لنظام دقيق من القيم يحترمه ويتمسك بقدسيته. وأما الأبله فملتزم بفكرة أو عمل ما ذي قيمة ضئيلة . اذا كانت له قيمة أبدا في نظر الانسان والتزامه لهذه الفكرة مدعاة للسخرية ، وفي أفضل الأحيان اثارة للشفقة لكنه لا يثير الاعجاب في أية فترة من حياته .

قدمت لنا الحياة ذاتها ، في أغلب الاحيان نماذج من الأبطال المآساوين فالاسكندر والحسين توماس مورو ، ابراهام لنكولن ، هؤلاء وكثيرون غيرهم حملوا منذ خلقوا سر فنائهم ولقد كان رفضهم للحلول الوسط حول جوهر التزامهم الأساسي ، هو ذلك السر غير أنه في حياة اي من هؤلاء الأبطال العظام كثيرا من الحقائق المتشعبة خلال مراحل حياتهم الطويلة تصعب متابعتها على الانسان العادي ، فهي تبدو غامضة حينا مظلمة أحيانا . مجهولة أحايين أخرى. ونبالة المسرح تكمن في اختيار التفاصيل وترتيبها . ترتيب الحدث المآساوي . تقدو أي من الشخصيات التي تشاهدها على خشبة المسرح أكثر حقيقة مما كانت عليه في الحياة ذاتها وأكبر من حجمها الأساسي وليس شرطا ان يكون البطل المآساوي ملكا او ابن ملك أميرا او رجلا عظيما لو كان ذلك ، لانتهت الماساة من عصرنا ولاقتصر المسرح على فنون الملهاة والميلودراما . لم يعد في عصرنا كثير من الملوك ولم يبق رجال عظام . أصبح الشارع يضج

بالأبطال الماساويين وغدا الكاتب المسرحي في حيرة من أمره لاختيار بطل ماساوي . فالبائع المتجول بطل ماساوي وجندي في معركة بطل ماساوي . وفقير اعدمته النازية في المانيا برصاص طائش من أجل استمرار استبدادها واللاجيء العربي الفلسطيني الذي يذبح كل يوم في مخيمات لبنان بطل ماساوي . وفلاح جليل الزيتون المشرد المصلوب تحت الشمس المحروم من حقه وأرضه الذي يعدم ابناؤه أمام عينيه بطل مآساوي الانسان العادي يصلح أن يكون بطلا تراجيديا في أية ماساة يكتبها كاتب مسرحي متميز . بالدرجة ذاتها التي يكون فيها الملك بطلا مآساويا .

ليست ندرة الملوك أو الرجال العظام بيننا اذن سبباً في ندرة النصوص التراجيدية . انني على تمام الثقة أن الشعور الماساوي في أعماق كل منا ، يمكن ان يستثار عندما نتواجه على خشبة المسرح ، أو في الحياة ، مع انسان مستعد للتضحية بحياته ، اذا دعت الحاجة لانقاذ شيء واحد ، لحماية احساسه بكرامته الشخصية . لقد كان الصراع المآساوي بدءاً من (أوريست) و(أوديب) و(وميدى) و(ماكبث) و(هملت) ، صراعا من أجل الحصول على المكان المناسب في المجتمع . والماساة الحقيقية هي موت الانسان في صراعه مع اي شر من الشرور المحيطة به . وهذه هي اخلاقية الماساة ، وكما قال مشاهير الكتاب في القرن الحالي : (الماساة تنير وتعلم) وهذا هو الدرس الذي تعلمه الماساة وبه تشير باصبع الاتهام الى أعداء حرية الانسان . اذا كانت المأساة هي التي تعلمنا فالبطل المأساوي انسان يذكرنا بانسانيتنا ، نرضاه نموذجا ، سواء أكان رجلا نبيل المحتد ، أم بائع حمص .

والعنصر الرابع من عناصر الماساة هو اللغة . لقد ألح الكتاب والنقاد الكلاسيكيون ان الشعر هو اللغة التي تناسب الماساة وان نظرة سريعة الى مسرحيات سوفوكليس وشكسبير ، وراسين ، وجوته ، ومارلو ، لتؤكد هذه النظرة وكما ان المآساة في الواقع أرفع تعبير يصدر عن الانسان فيما يمكن ان يحدث كذلك اللغة هي أكثر مهارات الانسان تطورا . هي الوسيلة الاكثر انسانية . وقد يصعب ادراك الماساة العظيمة دون لغة رفيعة وهنا تكمن الدقة في اختيار اللغة المناسبة للشخصية المآساوية في المسرحية التي تختلف جذريا للضرورة من الكاتب ذاته . ومهما يكن فالشعر الآن ليس لغة الماساة الوحيدة وربما عثرنا على نصوص كثيرة كتبت بالنثر لكن الشرط الأساسي هو أن اللغة التي يستعملها الكاتب المسرحي لبطله الماساوي لغة رفيعة وجادة . دقيقة وحية في ان معا .

لقد سمعنا وقرأنا عن واحد من أهم أهداف الماساة . وليس خافيا انني اقصد إثارة الشفقة والخوف ومن ثم التطهير الذي يصل الى أعماق الذات من خلال مراقبة الحدث

الماساوي كان ارسطو يصل الى هذه الغاية من طريق عنصر أساسي في الماساة وهو الموسيقى أو الأغنية وليس هناك من شك في أن التطهير والوصول اليه في مفهوم (ارسطو) بقى بحاجة الى توضيح ـ ولقد أسهم النقاد في توضيح هذا المفهوم فاختار البعض الجانب الغيبي ، واختار البعض الآخر الناحية الأخلاقية أو السياسية او الاجتماعية أو النفسية . واعطوا عملية التطهير تفسيرات تنطبق وتلك الجوانب.غير أن حقيقة التطهير من خلال التجربة المسرحية كانت الاساس الاقوى . فاختلفت الاضواء من زمان الى آخر ومن مكان الى مكان ، تبعا لكل مسرحية وبقي الحدث الكامل الجاد الذي تعرفنا عليه من خلال مراقبتنا لانسان على المسرح هو الذي يساعدنا على تعميق تجربتنا الانسانية عن حياة الانسان وطبيعته في هذا العالم.وهنا جو المآساة : المتعة من خلال الألم . فكما ان الجو يتأثر بالموضوع والقصة والشخصية واللغة فكذلك هذه جميعا تساهم في خلق الجو النفسي العام . .

آخر عناصر المآساة العرض المسرحي أو المشهد وعلى الرغم من عدم بلوغه الدرجة المهمة في مفهوم (ارسطو) عن المآساة الا انه في الحقيقة عنصر أساسي فالذي نراه ربما يبلغ أهمية ما نسمعه . وعذر النقاد عن (ارسطو) في ذلك ، هو انه كان يناقش الماساة كنص مسرحي وليس كتمثيلية على خشبة مسرح فالمسرحية تمثيلا غيرها نصا . ولا يناقش في ذلك اي مبتدىء في فنون المسرح فالمسرحية أساسا هي ما يسمعه المرء وما يراه ايضا .

لا بد اذن من وجود مكان تمثل فيه العمل المسرحي.وفهم الماساة يختلف الى حد كبير من مخرج الى مخرج . ونجاح المسرحية او فشلها ، يعتمد بنسبة كبيرة على استخدام المكان وعلى طريقة تعامل شخصيات المسرحية مع ما يحيط بهم على خشبة المسرح . نسمع مثلا ما يفعل (اوديب) بنفسه ثم نراه يخرج والدم يسيل من عينيه بعد أن فقأهما ويروى حدث انتحار بطل ما ، ثم نرى جثته تحمل على خشبة المسرح.بينما نرى مبارزة بالسيف في اخر فصل من (هملت) وموتا بالجملة لعدة شخصيات . فرؤية تعابير وجه (فيدرا) وهي تغرق في الكرسي تزيد كثافة الياس الذي تحمله كلماتها .

في زماننا نحن لم يستطع المسرح العربي أن يعثر على جواب على المأساة التي يعيشها الانسان العربي كل يوم ، ويبقى عاجزا عن تفسير ولادته وحياته وموته ، ويستمر متفرجا على علاقته مع الآخرين ، مجرباً حينا مدى قدرته على دراسة هذه العلاقة مقتنعا احيانا كثيرة انه لا يستطيع ان يكون وحده في جزيرة . ليس هناك من سبيل اخر . ضروري ان يوجد الانسان الاخر كي تتم عملية التفاعل والخلق . ومن أجل هذا لا بد من اسلوب أخلاقي متميز . فلا يصح لشخصية ما ان تدعي الماساوية لمجرد شعارات ترفعها دون أن تقدم دليلا